تجليات الحزن في شعر نزار قباني

إعـــداد

د. مريم فرحان نافع مطلق العنزي

دكتوراه لغة عربية

كلية الآداب – جامعة الاسكندرية

DOI: 10.12816/0045609

مجلة الدراسات التربوية والانسانية . كلية التربية . جامعة دمنهور .

المجلد الثامن– العدد الثالث – لسنة 2016

تجليات الحزن في شعر نزار قباني

د. مريم فرحان العنزي

DOI: 10.12816/0045609

مقدمة:

الحزن شعور طبيعي يصيب أي إنسان نتيجة لبعض الحوادث الأليمة التي يتعرض لها على مدار حياته ، ولكل إنسان ردة فعل مختلفة عن الآخر في انفعاله وحزنه. فمن الناس من يستسلم لهذه الأحزان وتصبح الحياة سوداوية اللون، ومنهم من يتغلب على أحزانه ويحاول الخروج منها بشتى الطرق. ولكل إنسان طريقته الخاصة؛ فمن الناس يلقي بنفسه في خضم عمل يلهيه، أو يترك العالم ، ويذهب لمكان بعيد يروح فيه عن نفسه وينسى آلامه.

أما الفنان، هذا الكائن البشري ذو الطبيعة الحالمة. فهو يذوب في فنه، فيفني في الفن أحزانه. يختلط الحب بالحزن ؛ فينتج ملحمة فنية خالدة. وخاصة الشعراء. لقد منح الله الشاعر هبة خاصة للتعبير عما يجول بخاطرته. يعزف على أوتار ألمه، فينشد لحنا شعريا يطرب السامعين.

ورغم أن نزار قباني قد اشتهر باهتمامه المبالغ فيه بأشعار الحب والغزل ووصف المرأة، مما صور للناس أنه أبعد ما يكون عن الأحزان وأنه "دنجوان" عصره و"فلانتينو" القرن الذي تعشقه النساء، إلا أن المتأمل في شعل نزار لواجد فيه عَبرة بائسة حزينة، وآلام تكبدها على مدار حياته في الدنيا، فقد تعرض نزار للعديد من الأحداث التي تسببت في حزنه ومرارة أيامه. وربما لا يعلم الكثير عن أحزان نزار شيئا ؛ لأننا لا نعرف نزار إلا من خلال أغاني عاطفية تغنى بها عبد الوهاب ونجاة وعبد الحليم وكاظم الساهر والأخوين رحباني وغيرهم، فهو زعيم الكلمة الحلوة و العبارات المعسولة.

لذا جعلت هذا البحث عن نزعة الحزن في شعر نزار ، والدوافع لهذه النزعة الحزينة، وقسمت تلك الدوافع إلى (كونه شاعرا، هموم الوطن العربي، موت ابنه

توفيق قباني، موت والدته أم المعتز، موت بلقيس زوجته وملهمته، والهزائم العاطفية التي مر بها نزار في حياته). وكلها صدمات وحوادث قد تمر بأي إنسان، إلا أن العالم عند نزار قد توقف عند كل منها ليسجل أروع الكلمات والقصائد النزارية ذات الطابع الحزين.

تمهيد

الحزن في المعجم

حُزن" (اسم)، مصدر حَزَنَ وحَزِنَ ، الجمع أحزان

والحزن: خلاف الفرح، حالة من الغم والكآبة باطنًا، ويترجم عنها الظاهر في الغالب ، والحزن ضد السرور[1]

إن ظاهرة الحزن في الشعر، وخاصة الشعر المعاصر، نابعة من تلك الأجواء التي عاشها شعراء هذه الفترة، وقد كانت الأزمات الاجتماعية والسياسية منبعا ينهل منه الشاعر المعاصر مشاعر وأفكارًا فيصوغ بها أجمل القصائد،" إن الإبداع الفني ينشأ بوجود صراع لا يمكن حله، حلا مباشراً فيما يسعى بعالم الواقع العملي فإن حياة الفنان زاخرة بضروب من الصراع لا يمكن التغلب عليها إلا في ميدان التعبير الفني، والواقع أن الإبداع بمعناه الدقيق يقوم على حياة تملؤها مشكلات تثير القلق والاضطراب."[2] فلولا الأزمات والصراعات لما وجد الشعر الجيد، و"إن الرعيل الأول من شعراء الأمم المختلفة كتبوا شعرهم بعاطفة فياضة مستخدمين تعبيرات مجازية تنبض بالحياة للتعبير عن الانسياب التلقائي للمشاعر الجياشة، ثم خلفهم شعراء قلدوا نفس اللغة لإثارة مشاعر وأحاسيس لم يجربوها ، ففقدت لغة الشعر رونقها وأصالتها."[3] لكن هؤلاء الذين ينغمسون في

---

[1] انظر: مروان العطية– معجم المعاني الجامع.

[2] د.فاروق وهبه– ظاهرة الاغتراب في فن التصوير المعاصر – الهيئة المصرية العامة للكتاب– مكتبة الأسرة– ط2001– صـ37

[3] جيهان السادات: أثر النقد الإنجليزي في النقاد الرومانسيين في مصر بين الحربين(في الشعر)– دار المعارف– ط1992– صـ70.

هموم مجتمعهم و قضاياه ويتفاعلون مع مشكلاتهم وأحزانهم فينتجوا شعرا صادق الإحساس يبقى أبد الدهر محفوظا في القلوب.

لقد "أدرك الشاعر المعاصر أن الذي يعيشه، هو زمن عنف، وقهر، فجاءت أشعاره حزينة، معبرة عن صرخة تنطلق من أعماق الألم، والتمزق الإنساني، إنها ضربات قضايا الواقع الأليمة التي توالت على الشاعر منذ الخمسينيات، وأكثرها الأحداث السياسية الهائلة والفهم الخاطيء للمعاصرة والحداثة، كل ذلك خلق جوا حادا من التوتر، فالكآبة تعمقت جذورها في نفسيته، وتحولت إلى فلسفة تشاؤمية ترى في الوجود الإنساني شرا وفي الحياة سلسلة حلقاتها من الألم الذي يفتت أجزاءها، فمظاهر الحزن تنوعت بين الإحساس بالكآبة واليأس والشعور بالغربة، والوحدة، وظاهرة الحب التي أصابها الحزن. وفي شعرنا المعاصر استفاضت نغمة الحزن حتى صارت ظاهرة تلفت النظر، بل يمكن أن يقال إن الحزن قد صار محورا أساسيا في معظم ما يكتب الشعراء المعاصرون من قصائد."[4] فأصبحت نغمة الحزن متأصلة في معظم قصائد هذه الفترة. ولعل نزار قباني أكثر الشعراء صدقا في عاطفته؛ لذا فقد جائت بعض قصائده نغمة حزن عميقة وصادقة.

في دمشق، ومع ولادة الربيع، "ولد نزار قباني في 1923/3/21"[5]، أي أنه مواليد برج الحمل؛ والمعروف أن أصحاب برج الحمل، الإفراط في الرومانسية الحالمة والموهبة القوية. و"حصل على علومه في الجامعة السورية بإجازة في الحقوق سنة 1945. خدم في السلك الدبلوماسي ما بين سنة 1945 و1966، مؤثرا بعد ذلك الشعر على الوظيفة التي استقال منها ليستقر في بيروت، مؤسسا

[4] عز الدين اسماعيل– الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية– ط1– 1966م صـ352

[5] د. سهيل محمد خصاونة– نزار قباني والنثر– رثاء ولده توفيق نموذجا –مجلة مجمع اللغة العربية دمشق– 2005– صـ597

فيها دارا للنشر تحمل اسمه."[6] وانطلق نزار ينشد أروع القصائد التي كانت ولا تزال محفورة في قلب كل عربي. وقد احترف نزار الشعر والنثر، ومع وجود النزعة الجديدة، الشعر الحر، انطلق نزار ينشد الشعر المنثور، ولا تختلف لغة الشعر عن لغة النثر الجيد – في نظر **وردزورث** "إلا في أن الكلام منظوم، بل إن أروع الأجزاء في أبرع القصائد هي ما جرت في لغتها مجرى النثر إذا أجيدت كتابته."[7]

وكثير منا عندما يقرأ أو يسمع حروف كلمتىّ "نزار قبانى" تُرسم فى مُخيلته امرأة عارية يُمثل بها... أو رجل يعربد فى حانةٍ وضيعة ... أو على أنقى الصور الذهنية رجل يمشى فى المتنزهات والحدائق يغنى نشوةً ليصطاد فريسته.

وكل هذا طبعًا ليس له علاقة بنزار قبانى ولا شخصيته ، بل تصورات خاطئة قد يكون المسؤول الأول عنها نزار نفسه ؛ لأنه أراد أن يعبر ليس عن شخصه فقط ، لكنه أراد أن يعبر عما يخجل أن يعبر به محاربوه ، ولهذا كان يُقرأ نزار قبانى فى الغرف المغلقة بنهمٍ شديد ويُسب فى الساحات المفتوحة بحقد أشد.

أليس يكفي أنني تركتُ للأطفال بعدي لغةٍ وأنني تركتُ للعشاق أبجديه[8]

وربما كان المسؤول هو الجمهور الذى كان ولا يزال يبحث فى شعر نزار قبانى عن غرائزه التى طالما لهث دونها فلا يعنيه من شعر نزار إلا الذى لا يعنى نزار من شعره.

ومن ضمن الأبعاد المجهولة فى شعر نزار قبانى والتى يمر عليها القارئ سريعًا حتى يصل إلى مايريده من شعر نزار البعد البكائى فى شعر نزار قبانى فـ "هناك كثيرا من الأحداث الباطنية التي تتحقق في أعماق نفس الفنان أثناء عملية

[6] نزار قباني – الديوان– صـ2

[7] وردزورث : الشعر وألفاظه – ترجمة : زكي نجيب محمود– ضمن كتاب : قشور ولباب – دار الشروق– ط1401:1هـ،1981م– ط2: 1408هـ، 1988م– ص22 .

[8] نزار قباني – الأعمال الكاملة– قصيدة (يوميات مريض ممنوع من الكتابة) – إعداد محمد صلاح السيد– دار الخلود للتراث– الدار العربية للنشر والتوزيع – ط2009– ج2– صـ884

الإبداع الفني دون أن يكون هو على علم واضح بما يحدث في باطن نفسه."[9]
فهو كما يقول:

أنا أقدمُ عاصمةٍ للحزن
وجُرحي نقشٌ فرعوني
وجعي.. يمتدُّ كبقعةِ زيتٍ
من بيروتَ.. إلى الصِّينِ
وجعي قافلةٌ.. أرسلها
خلفاءُ الشامِ.. إلى الصينِ
في القرنِ السَّابعِ للميلاد
وضاعت في فم تَتّين
أنا نُقطةُ ماءٍ حائرةٌ
بقيت في دفترِ تشرينِ[10]

فنزار قبانى شاعر حزين برغم عزوفه عن احتراف قصائد الحزن كما فعل غيره من الشعراء كصلاح عبد الصبور وأمل دنقل وغيرهم الكثير ، وهم صادقون لاشك ولكن نزار كما قلنا كان يحمل أحاسيس الإنسان العربى بكل ما تحمله اللفظة من معان ؛ فهو شاعر الحب الجوال أو كما يقول جهاد فاضل شاعر ما يطلبه المستمعون ، وهذا يعد وسامًا على صدر هذا الشاعر الذى استحوذ بلا مبالغة على أكبر جمهور شعرى فى تاريخ الشعر العربى "إن نزار قباني في جملة انتاجه اتسم بالصدق في التعبير والاقناع بوجهة النظر والمبدأ والمذهب في الحياة؛ لذلك جاء أسلوبه أنيقا صادقا مثاليا."[11] والألم هو الذي يفتح قوى النفس، ويعلّم الإنسان، ويكشف له عالم الروح، كما أن الألم يعطي الشعر قيمته

[9] د.زكريا ابراهيم– مشكلة الفن– مكتبة مصر– صـ130

[10] نزار قباني – الأعمال الكاملة– قصيدة (جسمك خارطتي) – إعداد محمد صلاح السيد– دار الخلود للتراث– الدار العربية للنشر والتوزيع – ط2009– ج1– صـ328

[11] محمد عبد الرحمن مصطفى عبد الرحمن– البناء الفني للشعر الغزلي عند نزار قباني– رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي– 1426هـ:2005م– صـ64

الإنسانية، فالشاعر إنما يكتب بقلبه وإحساسه، وبدون أقنعة . يقول **كيتس:** "ينبغي لعبقرية الشعر أن تصنع خلاصها الذاتي في الإنسان؛ لا يمكن أن تنضج بالقانون والمبدأ، بل بالإحساس واليقظة في ذاتها، ينبغي للمبدع أن يبدع نفسه."[12] ونزار كان بارعا في صدقه وعفويته في الكتابة، فهو يكتب كل ما يشعر به.يقول نزار" ما تعودت عندما أكتب أن أخترع ألوانا لا وجود لها، أو أكتم دمعة لم تغرغر في عيوني."[13] إن نزار يكتب ما تمليه عليه نفسه فيخرج ما في كنهه دون خجل، ويفند مشاعره دون تصنع أو مغالاة.

دوافع الحزن في شعر نزار:

لا بد من أن يكون هناك أسبابٌ لحزنه هذا وهى كثيرة نذكر منها:

1) كونه شاعرًا

الشعر متنفس القلب، والشاعر أكثر الناس إحساسا بالعالم؛ فالأزمات التي تؤثر في البشر فتضعفهم أو تقويهم إنما تؤثر في الشاعر بشكل مختلف فالشاعر لا يعرف ردود الأفعال العادية التي يمتلكها البشر، إن ردة فعله هي شعره وقصائده. يقول نزار "كل الطرق عند الأوروبيين توصل إلى روما ، وكل الطرق عند العرب توصل إلى الشعر."[14] فالشعر هو حياة الشاعر وملاذه وإن الفرق بين الشعراء وغيرهم " يتجلى في التكوين النفسي للشاعر، وهومتميز –كما يصفه علماء النفس– يقوم على الإحساس المرهف والخيال الخارق. وهذا التكوين الخاص أو المتميز يجعل الشعراء والفنانين وسائر المبدعين في حالة قلق دائم وتوتر مستمر.[15] والشاعر دائمًا يشعر بما لايشعر به غيره ، وتحزنه أشياء قد لاتؤثر فى غيره .

---

[12] ريموند ويليامز : الفنان الرومانتيكي – ترجمة: محمد عدنان حسين، مجلة الآداب الأجنبية– السنة الخامسة– مجلد9– عدد2– اتحاد الكتاب العرب– دمشق، ص24 – 25

[13] نزار قباني– لعبت بإتقان وها هي مفاتيحي– صـ43

[14] نزار قباني– ماهو الشعر– صـ4

[15] عبد العزيز المقالح– الشعر بين الرؤيا والتشكيل– دار العودة– بيروت– ط1– 1981م– صـ26

ولأن الشاعر "يجعل ذاته موضوعه ، وكأنه يتأملها في مرآه، فتعبيره ذاتي في نشأته، ولكنه موضوعي في عاقبة تعبيره عنه، وهذا التعبير شخصي في تصوير مشاعر صاحبه، ولكنه عالمي في صورته الشعرية، وهو بذلك محدد لا محدد معًا، إذ إنه إنساني عالمي في نزعته، على أن الشعر لا يفقد – بعد – بذلك مقومات الشخصية، إذ الشاعر فرد في بيئة وموقف معينين."[16] والشاعر ينبع شعره من القلب ولا شيء سوى القلب يقول **الفريد دي موسيه** :"اقرع باب القلب ففيه وحده العبقرية، وفيه الرحمة والعذاب والحب."[17]و يرى **نوفاليس** الألماني (1772 – 1801م) أن "الشعر تمثيل للشعور ولعالم النفس في مجموعه ، وكلما كان الشعر فرديًا وذا طابع محلي وصبغة حاضرة ذاتية كان أقرب إلى صميم الشعر."[18] ومن ثم نرى نزارا يرسم بكائياته وأحزانه في لوحات شعرية أنيقة وصادقة فيقول: ومابين فصل الخريف وفصل الشتاء هنالك فصلٌ أسميه فصل البكاء[19]

إن نزارا يرى بعين الشاعر ما لا يراه الإنسان العادي فيخلق لنفسه فصلا من فصول السنة ما بين الخريف والشتاء، هذا هو فصل أحزانه ، يسميه فصل البكاء. والشتاء مثلاً قد يدمر نزار نفسيًا يقول:

إذا أتى الشتاء..
وحركت رياحه ستائري
أحس ياصديقتي
بحاجة إلى البكاء
على ذراعيك..

[16] محمد غنيمي هلال– النقد الأدبي الحديث– نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع– ط6– 2005– صـ361

[17] محمد غنيمى هلال– الرومانتيكية– نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع– صـ11:10

[18] محمد غنيمى هلال: الرومانتيكية – نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع– صـ40 .

[19] [19] نزار قباني – الأعمال الكاملة– قصيدة (تناقضات ن.ق. الرائعة) – إعداد محمد صلاح السيد– دار الخلود للتراث– الدار العربية للنشر والتوزيع – جـ2– ط2009– صـ 853

على دفاتري[20]..

إن دموع السماء، المطر، تجعل نزار يستسلم لأحزانه، يقبل على البكاء بين زراعي محبوبته، تتملكه رغبة في البكاء حتى على دفاتره ، بيت طيات أوراقه وأسطره.إن طابع الحزن في شعر نزار قد انعكست في أشعاره جلية فهذا هو فصل الشتاء الذي يسعد به كل الناس ويرونه فصل الخير والرخاء، يراه نزار من أكثر الفصول كآبة وحزنا.

ربما نزار لا يسعد في الشتاء، إن نزارا كأي شاعر يتعلق بجمال الطبيعة، ينعم بمنظر الزهور والطيور، ويعشق رائحة الخضرة والشمس التي تبعث التفاؤل، لذا فهو يبغض الشتاء هذا الفصل الصامت فكل الحيوانات والطيور في بيات شتوي، والناس نيام، ولا يبقى سوى صوت المطر وظلمة الغيوم. والمكوث في السرير. فنجده وهو فى قمة سعادته يقول فى قصيدة "بيروت والحب والمطر":

عندما تمطر في بيروت..

تنمو لكآباتي غصون، ولأحزاني يدان

فادخلي في كنزة الصوف .. ونامي[21]

وهنا تتبلور فكرة نزار التي كونها بداخله عن فصل الشتاء، فعندما تمطر الدنيا لا يزهر الشجر ، ولكن تزيد أحزانه وكآبته حتى تنمو لها غصون وأياد، حينما لا يبقى سوى كنزة صوف يستتر بها ويدخل في نوم وكأنه بيات شتوي، وهكذا يطلب من محبوبته أن تفعل، فلا شيء في الشتاء لا حب أومشاعر، لا شيء سوى الكآبة والنوم.

وفي لوحة شعرية أخرى يأتي فيها الحزن طابعا أساسيا في قصيدة (حقائب الدموع والبكاء) يسأل نزار متعجبًا:

[20] نزار قباني – الأعمال الكاملة- قصيدة (حقائب الدموع والبكاء)- إعداد محمد صلاح السيد- دار الخلود للتراث- الدار العربية للنشر والتوزيع- ج 1 – ط2009- صـ182

[21] نزار قباني – الأعمال الكاملة- قصيدة (بيروت والحب والمطر)- إعداد محمد صلاح السيد- دار الخلود للتراث- الدار العربية للنشر والتوزيع- ج 1 – ط2009- صـ321

من أين جاء الحزن يا صديقتي ؟
وكيف جاء؟
يحمل لي في يده..
زنابقا رائعة الشحوب
يحمل لي .. حقائب الدموع والبكاء..[22]

2- هموم الوطن

يقول نزار: "الشرط الأساسي في كل كتابة جديدة هو الشرط الانقلابي.[23] فالتمرد هو دأب الشعر وديدنه، وملاذ الشاعر الرفض والشجب والاعتراض.وهموم الوطن هي شغل كل شاعر صادق الحب لوطنه وأمته.

يقول : خارج دوما عن النص أنا
خارج دوما على جلدي ... وعظمى ... وشراييني أنا
سيِّد التغيير .. والتفجير .. والتحريض .. والرفض أنا .. إنني حطمت بالشعر قوانين
هولاكو ... وتماثيل هولاكو .. وسلالات هولاكو .. ودفعت الثمنا.. [24]

يقول نزار: "إن المكان الطبيعي للكاتب العربي المعاصر هو في صفوف الانقلابيين ، ومهما اختلفت المواقف الوجودية بين كاتب وكاتب وتباينت الرؤى بين شاعر وشاعر .. فإن القاسم المشترك بين كل مايكتبون هو الثورة."[25] في رأى نزار أن الشاعر يحمل أحزان مجتمعه ويعبر عنها فهو يحمل هموم وطنه ، وهذا هو الشاعر الصادق ، وإذا أردنا مثالاً لهذا الشاعر فنزار قبانى خير مثال .

[22] نزار قباني – الأعمال الكاملة– قصيدة (حقائب الدموع والبكاء)– إعداد محمد صلاح السيد– دار الخلود للتراث– الدار العربية للنشر والتوزيع– ج 1 – ط2009– صـ182

[23] نزار قباني– الكتابة عمل انقلابي– دار منشورات نزار قباني– بيروت– لبنان– ط4–1984–صـ7

[24] نزار قباني– الأعمال الكاملة– قصيدة (من أنا في أمريكا) إعداد محمد صلاح السيد– دار الخلود للتراث– الدار العربية للنشر والتوزيع – ط2009

[25] نزار قباني– الكتابة عمل انقلابي– دار منشورات نزار قباني– بيروت– لبنان– ط4–1984–صـ11

...لا تشهقي
إذا قرأت الخبر المثير في الجرائد اليومية
قد يشعرُ الحصان بالإرهاق يا حبيبتي
حين يدق الحافرُ الأولفي قلبي
والحافُر الآخر في المجموعةُ الشمسية
تماسكي ... في هذه الساعات يا حبيبتي
فعندما يقرر الشاعرُ
أن يثقب بالحروف جلد الكُرة الأرضية
وأن يكون قلبه تفاحةٍ
يقضُمها الأطفالُ في الأزقة الشعبية
وعندما يحاول الشاعرُ أن يجعل من أشعارهَ
أرغفةٍ يأكلها الجياعُ للخبز وللحرية
فلن يكون الموت أمراً طارئاً
لأن من يكتب يا حبيبتي
يحملُ في أوراقه ذبحتهُ القلبية[26]

إن للشاعر في نظر نزار مهمة وطنية مقدسة تجاه وطنه وشعبه، فالشاعر يحمل فى أوراقه ذبحته القلبية ولاسيما نزار قبانى الذى عانى كثيرًا من مجاذيب المجتمع ودراويشه فضلاً عن مضايقات الحكام، يقول:

ما للعروبة تبدو مثل أرملة
اليس في كتب التاريخ، أفراح؟
والشعر .. ماذا سيبقى من أصالته؟
اذا تولاه نصاب .. ومداح
وكيف نكتب ؟ والأقفال في فمنا
وكل ثانية، يأتيك سفاح

[26] نزار قباني – الأعمال الكاملة– قصيدة (يوميات مريض ممنوع من الكتابة) – إعداد محمد صلاح السيد– دار الخلود للتراث– الدار العربية للنشر والتوزيع – ط2009– ج2– صـ884

حملت شعري على ظهري .. فأتعبني
ماذا من الشعر يبقى، حين يرتاح؟[27]

إن نزار قباني يتحدث عن الوطن فيعبر "تعبيرًا شخصيًا ويضع في قالب جميل العواطف والأفكار العامة التي يشترك فيها مع الجمهور، تلك العواطف والأفكار التي هي بمثابة حقائق عامة شاملة بالنسبة للجيل."[28] إنه يتألم لحال الوطن العربي والعروبة "لكنه يحول ألمه إلى فلسفة في الحياة وإلى تفكير واسع فيما يلاحقها من نعيم وبؤس وسعادة وشقاء. فالألم عند هذا الفريق لا يتحول إلى نفسه والحديث عن أوجاعه، وإنما يتحول إلى الحياة البشرية كلها وما ترتطم به من صخور الشر والظلم الصارخ.[29] فيصف بشعره حال الوطن والأمة العربية، ويوضح مهمة الشاعر أن يكون صادقا في رصده للأحداث لا مجرد ببغاء في بلاط أصحاب السلطة، ويحذر نزار من أن يكون الشاعر مجرد مداح أو نصاب يأكل على كل الموائد فالشاعر هو صوت ضمير الوطن.

أ) نكسة 67 ورحيل جمال عبد الناصر

لا تمر الأحداث والأشخاص التاريخية على الشاعر مر الكرام، فالشاعر يتأثر بما يحدث وبمن له الفضل في الحدث، ذلك أن "الأحداث التاريخية وشخوصها ليست مجرد ظواهر عابرة، بل تظل دلالاتها باقية ومتجددة في صيغ أخرى، وليست مُعَطَّرةً في كفن قديم."[30] هكذا كان الحال بعد ثورة 52 وما تلاها من أحداث خاصة هزيمة 67 ووفاة عبد الناصر، ولذا جاءت قصيدته "هوامش على دفتر النكسة " مَواجَهة مع العرب، ومع القيادة، لقد جسد نزار في قصيدته توليفة

[27] نزار قباني – الأعمال الكاملة– قصيدة (القصيدة الدمشقية) إعداد محمد صلاح السيد– دار الخلود للتراث– الدار العربية للنشر والتوزيع – ط2009

[28] هربرت ريد – السريالية والمذهب الرومانتيكي – ضمن كتاب– أسس النقد الأدبي الحديث، ترجمة: هيفاء هاشم– مراجعة: نجاح العطار– مطابع وزارة الثقافة– دمشق –ط 1966م– ص214.

[29] شوقي ضيف – دراسات في الشعر العربي المعاصر– دار المعارف– ط1– 1953–– ص143

[30] خالد طحطح – عودة الحدث التاريخي – دار توبقال للنشر – ط1 –ط 2014م– ص 7 .

من الرغبة في الثورة، والقصاص من الذات والآخر[31]. ويفرغ نزار شحنة غضبه، بدافع التزامه بوطنيته [32]،وحبًا في حريتها تحوّل مِن شاعر الرومانسية إلى شاعر القومية،فخاطب وطنه مُتَحَسِّرًا:

يا وطني الحزين ... حولتني بلحظة
من شاعر يكتب شعر الحب والحنين
لشاعر يكتب بالسكين [33]

فهؤلاء الذين قد انتموا إلى الفكر الناصري قد أصابهم الحزن والوهن إثر رحيل عبد الناصر. فـ "إن الناصرية فكر حيّ يقوم على الممارسة."[34] وليست مجرد لقب يحمله أصحابه، إنما هي مباديء ثابتة وأحلام ولدت مع ولادة الثورة. هكذا كان رد فعل الشعراء والكتاب المصريين والعرب محبطا للغاية، بعد النكسة ووفاة عبد الناصر.

ويبكيك صفصاف الشآم ووردها ... ويبكيك زهر الغوطتين، ودُمَّرُ
تعال إلينا ... فالمروءات أطرقت ... وموطن آبائي زجاج مكسر ...[35]

كان عبد الناصر رجلا بمعنى الكلمة، بطلا يبكيه الشجر والورد والأزهار، الوطن العريق من بعد فراق الزعيم زجاج مكسر ملقى على الطرقات، لا حلم، لا وحدة، لا ثورة، ولا فرحة حقيقية. فنزار يرجو البطل عبد الناصر أن يعود فالوطن من بعده حطام أيام. وفي مقطع آخر يطلب من الشعب ألا يزرف دمعا لموته وكأنه يرفض فكرة موت البطل / عبد الناصر فيقول: يا مَن تبكونَ على ناصرْ..

[31] حبيبة محمدي– القصيدة السياسية في شعر نزار قباني– موفم للنشر والتوزيع– الجزائر– ط 2001– صـ 2

[32] حسين العوري– الرفض في شعر نزار قباني – يونيو 1967/أكتوبر 1973– الدار العربية للكتاب– تونس– د.ط، 1999م– ص85

[33] نزار قباني – قصيدة هوامش على دفتر النكسة– ج6 – صـ 475 .

[34] طارق الهاشمي – الفكر القومي العربي لجمال عبد الناصر– ضمن مجموعة بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية– مركز دراسات الوحدة العربية – ط1– بيروت – 1986م – صـ 304 .

[35] نزار قباني : الأعمال السياسية الكاملة ، قصيدة في ذكرى ميلاد جمال عبد الناصر، ص389.

فكفّوا عن سكبِ العبراتْ..
ما زالَ هُنا عبدُ الناصرْ..
في طميِ النيلِ، وزهرِ القطنِ..
وفي أطواقِ الفلاحاتْ..
في فرحِ الشعبِ..
وحزنِ الشعب.. موجودٌ في أرغفةِ الخُبزِ..
وفي أسوانَ.. وفي سينا[36]

إن نزارا يقر بوجوده في كل مكان فلو مات الجسد تبقى الروح في طمي النيل، زهر القطن، طوق الفلاحات ، في حزن الشعب وفرحه. تبقى روحه الناصرية تجوب الأرض العربية تحمل معها الحلم العربي المشترك. ويتضح ذلك اكثر في المقطع التالي:

الحزنُ مرسومٌ على الغيومِ، والأشجارِ، والدفاتر
وأنتَ سافرتَ ... ولم تسافر ...
فأنتَ في رائحة الأرض، وفي تَفَتُّحِ الأَزاهر ...
في صوتِ كُلِّ مَوجة، وصوت كُلِّ طائر
في كُتبِ الأطفال ، في الحُروفِ ، والدفاتر
في خُضْرَةِ العُيون، و ارتِعاشَة الأَساور ...
في صَدر كُلِّ مُؤمنٍ، وسَيف كُلِّ ثائر ... [37]

فنزار مقتنع تماما أن عبد الناصر رحل ولم يرحل، سافر للعالم الأبدي ولم يسافر، فهو في رائحة الأرض وتفتح الأزهار، صوته الأجش المحفور في قلوب العرب كصوت ارتطام الموج بالصخور لن ينقطع أبدا، صوته في كتب المدرسة في الحروف في الدفاتر في صدر كل مؤمن ، وسيف كل ثائر.

ب) <u>قضية فلسطين</u>

[36] نزار قباني، الأعمال السياسية الكاملة، قصيدة في ذكرى جمال عبد الناصر ،ج3، ص 369 :372.
[37] نزار قباني : الأعمال السياسية الكاملة ، قصيدة رسالة إلى جمال عبد الناصر، ج3، ص378.

إن الشعر "مخزون لا يتناقص، ولا ينضب، وليس لمنظمة الأوبك سلطان عليه، ولا للدول قدرة على احتكاره. وتسويقه. لأنه ينبع من أعماق الروح الإنسانية حيث لا سلطان لأحد..[38] وامتدادًا لكون نزار شاعرًا فإن مشكلات وطنه تلح عليه ولا سيما بعد حزيران 1967 الذى أثر فى جيل نزار كله فـ "نزار شاعر ملتهب، وشعره ينبع من إحساسه بالألم وبالأوجاع المختلفة التي يعاني منها الإنسان العربي.[39].وقد شعر الجميع أن الكرامة العربية ما كانت إلا خرافة ، ومن هنا قرر نزار أن يعتق نسائه ويكتب بالسكين لا بأحمر الشفاه "إشفاقًا على البشرية المعذبة، وإيمانًا بغد سعيد يحققه الفكر والذكاء والطيبة.""[40] فيقول:

مالحة في فمنا القصائد
مالحة ضفائر النساء
والليل والأستار، والمقاعد
مالحة أمامنا الأشياء..
يا وطني الحزين
حولتني بلحظة
من شاعر يكتب شعر الحب والحنين
لشاعر يكتب بالسكين[41]..

هذه فلسطين الوطن المغتصب، اللأرض المحتلة، مزق القلوب وخاصة قلب شاعر كنزار ، فالعالم لا متعة فيه والأرض المقدسة بين براثن الطغاة، كل شيء مالح الطعم لا نكهة ولا لذة، الحب و النساء والليل و الأشياء. قد حول الوطن الحزين على أراضيه المسلوبة نزارا من شاعر يكتب عن الحب إلى مناضل يتحدث لغة الانتقام والثورة.

---

[38] نزار قباني – ماهو الشعر – صـ5

[39] حبيبة محمدي– القصيدة السياسية في شعر نزار قباني– الهيئة المصرية العامة للكتاب– ط1999–صـ45

[40] عيسى بلاطة : الرومنطيقية ومعالمها في الشعر العربي الحديث– المؤسسة العربية للدراسات والنشر– ط2014– ص42 .

[41] نزار قباني– الأعمال الكاملة– قصيدة (هوامش على دفتر النكسة) إعداد محمد صلاح السيد– دار الخلود للتراث– الدار العربية للنشر والتوزيع – ط2009– جـ1– 120

ولا نعجب من هذا فشاعر مرهف الإحساس ووطنيٌّ الهوية كنزار قباني قد يموت كمدًا لمثل هذه الأوضاع ؛ فنرى نزار يخجل من ممارسة الحب ويعتبرها حماقات لاتصح أمام أحزان وطنه يقول:

أريد أن أراك يا سيدتي ..لكنني أخاف أن أجرح إحساس الوطن ..أريد أن أهتف إليك يا سيدتي
لكنني أخاف أن تسمعني نوافذالوطن...أريد أن أمارس الحب على طريقتي
لكنني أخجل من حماقتي أمام أحزان الوطن .[42]

إن نزار يحرم على نفسه ممارسة الحب حتى لا يجرح إحساس الوطن، حتى لا ينشغل عنه لحظة واحدة ، ولا ينزع من فكره هموم وطنه ولو للحظات ينعم فيها بالعشق. لقد اهتم نزار بوطنه كثيرا من خلال أبياته، وقد كان "نزار من أبرز الشعراء الذين أحسنوا استدعاء الشخصيات، والأحداث التاريخية في شعره ، وذلك يرجع إلى اطّلاعِه العميق، وكذا بسبب حِسِّه القومي والوطني.[43] فهو يرسم صورة للأوضاع من خلال شعره يعكس فيها الواقع المرير ثم "يضفي عليها من ذاته و واقعه، و طبيعة الحالة النفسيّة." [44] فيحيلها أسطورة شعرية تبقى محفوظة في سجل الخلود.

3– موت توفيق قباني :

توفيق نزار قباني "أمير دمشقي جميل، خطفه الموت مبكرًا في 1973/8/10، وله من العمر اثنتان وعشرون سنة[45] وتعد حادثة موت توفيق قباني من أشد الحوادث التى تعرض لها نزار وأقساها عليه موت ابنه الكبير توفيق الذى مات ولم يتم دراسة الطب ، فقده نزار قبانى وهو فى ريعان شبابه

[42] نزار قباني– الأعمال الكاملة– قصيدة (لابد أن أستأذن الوطن) إعداد محمد صلاح السيد– دار الخلود للتراث– الدار العربية للنشر والتوزيع – ط2009– جـ1– صـ102

[43] أحمد زكي أبو شادي:شعراء العرب المعاصرين، ط1، المطبوعات الحديثة،1958م، ص183 .

[44] علي حداد– أثر التراث في الشعر العراقي الحديث– بغداد– دار الشؤون الثقافية العامة – آفاق عربية– ط1– 1986 م – صـ 80 .

[45] د. سهيل محمد خصاونة– نزار قباني والنثر – رثاء ولده توفيق نموذجا –مجلة مجمع اللغة العربية دمشق– 2005– صـ597

ولاشك كانت فاجعة تدمر أى إنسان ، فمابالنا بالشاعر، لقد كان "موت توفيق مثل موت النجوم، مثل موت البجع الأبيض، مثل موت الأسماك الملونة في أوانيها البلورية، موت مؤلم يخلع النفس، ويطفيء قرص الشمس[46]و. "عندما مات توفيق نزار قباني ابن الشاعر الكبير نزار قباني عام 1973 واجه نزار الموت بالشعر."[47]وقد رثاه نزار قبانى بكلمات مقصوصة كجناحه ومكسورة كجفونه

يقول: مكسرة كجفون أبيك هي الكلمات..
ومقصوصة ، كجناح أبيك،هي المفردات
فكيف يغني المغني؟
وقد ملأ الدمع كل الدواه..
وماذاسأكتب يا بني؟
وموتك ألغى جميع اللغات[48]..

عندما يرثي نزار ولده فإن الكلمات تتكسر، وتضيع الأحرف والمفردات، فقد ألغى موت توفيق كل لغات العالم فلم يعد هناك لغة لتعبر عن حزنه على موته وتخرج ما في كنه نفسه الحزينة وقلبه المحترق بالألم. ثم نرى مدى تأثر نزار قبانى فى هذا المقطع:

أشيلك، يا ولدي ، فوق ظهري
كمئذنة كسرت قطعتين..
وشعرك حقل من القمح تحت المطر..
ورأسك في راحتي وردة دمشقية .. وبقايا قمر
أواجه موتك وحدي..
وأجمع كل ثيابك وحدي

[46] نزار قباني– الكتابة عمل انقلابي– منشورات نزار قباني– ط1– 1978– صـ68:52

[47] د. سهيل محمد خصاونة– نزار قباني والنثر – رثاء ولده توفيق نموذجا –مجلة مجمع اللغة العربية دمشق– 2005– صـ599

[48] نزار قباني– الأعمال الكاملة– قصيدة (إلى الأمير الدمشقي توفيق قباني) إعداد محمد صلاح السيد– دار الخلود للتراث– الدار العربية للنشر والتوزيع – ط2009– جـ1– صـ351

وألثم قمصانك العاطرات..
ورسمك فوق جواز السفر
وأصرخ مثل المجانين وحدي
وكل الوجوه أمامي نحاس
وكل العيون أمامي حجر
فكيف أقاوم سيف الزمان؟
وسيفي انكسر[49]..

وهنا يصف نزار حاله وهو يودع ابنه للأبد ويحمله إلى لحده، وما أصعب تلك اللحظة على الأب المكلوم، أن يحمل ولده الذي طالما تمنى أن يظل ولده منه ذكرى يدعوله بعدما ينقطع عمله من الدنيا، فجأة يجد نفسه يحمله إلى قبره ليواري جسده التراب ولا يبقى له من ابنه إلا ذكرى. ولا يملك نزار أمام تلك الفاجعة المدمرة إلا البكاء على الأطلال كما كان يفعل شعراء الرثاء قديمًا ففى حالة نكوص شعرى رائع يقول:

أحاول أن لا أصدق . ها أنت تعبر جسر الزمالك،
ها أنت تدخل كالرمح نادي الجزيرة، تلقي على الأصدقاءالتحيه،
تمرق مثل الشعاع السماوي بين السحاب وبين المطر..
وها هي شفتك القاهرية، هذا سريرك، هذا مكان
جلوسك، ها هي لوحاتك الرائعات..
وأنت أمامي بدشداشة القطن، تصنع شاي الصباح،
وتسقي الزهور على الشرفات..
أحاول أن لا أصدق عيني..
هنا كتب الطب ما زال فيها بقية أنفاسك الطيبات
وها هو ثوب الطبيب المعلق يحلم بالمجد والأمنيات

[49] نزار قباني– الأعمال الكاملة– قصيدة (إلى الأمير الدمشقي توفيق قباني) إعداد محمد صلاح السيد– دار الخلود للتراث– الدار العربية للنشر والتوزيع – ط2009– جـ1– صـ351

فيا نخلة العمر .. كيف أصدق أنك ترحل كالأغنيات
وأن شهادتك الجامعية يوما .. ستصبح صك الوفاه!![50]

إن نزارا يحاول أن ينفي من فكره موت ابنه و يتخيله في كل مكان، يراه يعبر جسر الزمالك كعادته، يراه في جلسته الفنية يرسم لوحاته و يصنع شاي الصباح، يسقى الزهور. جلس نزار يتأمل كتب الطب وثوب الطبيب الذي كان يرتديه، ولم يكتف نزار بكتابة المرثيات فقد "كتب نزار أربع مقالات في رثاء ابنه توفيق جاءت المقالة الأولى بعنوان (كان ولدي فصار ولدكم) المقالة الثانية بعنوان (عن موت البجع والأطفال)، والمقال الثالثة بعنوان (هل احترق بنار الشعر؟)، المقال الرابعة (عيد ميلاد جرح)."[51]

4- موت أم المعتز :

لما كان "الفن في جوهره الصحيح تنفيس عن المشاعر، لكنه تنفيس منشط مثير، وما الفن من ثم إلا الوجدان متخذا شكلا جديدا.[52] فكان نزار يجد في الشعر موطنه الذي يحتضن آلامه وأحزانه؛ فالقلم وبعض الوريقات هم ثروته الحقيقية و متنفسه الذي يخرج على صفحاتها أحزانه وآلامه.ومن أعنف الصدمات التى واجهت الشاعر نزار قبانى موت أمه التى كانت المصدر الطبيعى للحنان كما قلنا من قبل :

بمـوتِ أمّـي .. يسـقطُ آخـرُ قمـيصِ صـوفٍ أغطّـي بـهِ جسـدي
آخرُ قميصِ حنانْ .. آخرُ مظلةِ مَطَرْ.. وفي الشّتاءِ القادمْ .. ستجدونَني أتجوّلُ في الشوارعِ عارياً.. [53]

[50] نزار قباني- الأعمال الكاملة- قصيدة (إلى الأمير الدمشقي توفيق قباني) إعداد محمد صلاح السيد- دار الخلود للتراث- الدار العربية للنشر والتوزيع – ط2009- ج1- صـ351

[51] انظر: د. سهيل محمد خصاونة- نزار قباني والنثر – رثاء ولده توفيق نموذجا –مجلة مجمع اللغة العربية دمشق- 2005- صـ605:608

[52] هربرت ريد- معنى الفن- ترجمة سامي خشبة- دار الكتاب العربي- القاهرة- صـ55

[53] نزار قباني- الأعمال الكاملة- قصيدة (أم المعتز) إعداد محمد صلاح السيد- دار الخلود للتراث- الدار العربية للنشر والتوزيع – ط2009

إن الأم بالنسبة لنزار هي سترته التي تحميه من برد قارص، إنها ذاك المعطف الذي يحتويه. وهذه الصدمة قد أثرت فى نفس نزار تأثيرًا فقد ظل يبحث عن أمه فى كل امرأةٍ يقابلها ويتمنى أن تصبح أمه لينام بين ذراعيها يقول:

أخطأت ياصديقتى بفهمى
فما أعانى عقدةً
ولاأنا أوديب فى غرائزى وحلمى
لكن كل امرأةٍ أحببتها
أرددت أن تكون لى
حبيتى وأمى
من كل قلبى أشتهى أن تصبحين أمى[54]

تركت أم المعتز بعد رحيلها قدرًا من الشعور بالحرمان والخوف من المجهول بقدر ماكانت تمنحه من الشعور بالأمان وهى على قيد الحياة. فأخذ نزار يبحث في كل امرأة عن أم تحتضنه، تكون له حبيبة وأما، تصبح هي سترته التي افتقدها، مدفاته في برد الشتاء القارص. ويخاطب هنا معشوقته فينفي أن يكون مصابا بعقدة نفسية كعقدة أوديب إنما يشتهي ضمة حنان عميقة الحب كحب الأم لوليدها.

5 – موت بلقيس الراوى :

بعد موت أم المعتز لم يجد نزار بطفولية أحاسيسه إلا بلقيس زوجته كى تمنحه ما حُرم من الأمان بعد أم المعتز ، وقد نجحت بقدر كبير فى إشباع احتياجاته.

لكن القدر شاء أن يبقى وحيدًا مثل أوراق الشتاء بموت بلقيس فى انفجار السفارة العراقية فى بيروت عام 1981 فضاعت منه قبيلة النساء التى أعادت الدماء للعروق كما أعادت الحبر للأقلام كما يقول عنها نزار وقد أثر موت بلقيس

[54] نزار قباني– الأعمال الكاملة– قصيدة (كتاب الحب) إعداد محمد صلاح السيد– دار الخلود للتراث– الدار العربية للنشر والتوزيع – ط2009– جـ1– صـ300

فى نفس نزار مالم يؤثر فيه موت أمه فرثاها بقصيدة تعد من أطول وأجمل شعر نزار قبانى يقول فى مطلعها:

شكراً لكم شكراً لكم فحبيبتي قتلت وصار بوسعكم أن تشربوا كأساً على قبر الشهيدة ... وقصيدتي اغتيلت...وهل من أمة في الأرض – إلا نحن – تغتال القصيدة ؟[55]

ثم يصف لنا بلقيس يقول:

بلقيس كانت أجمل الملكات فيتاريخ بابل

بلقيس...كانت أطول النخلات في أرض العراق

كانت إذا تمشي ترافقها طواويس وتتبعها أيائل

بلقيس يا وجعي ويا وجع القصيدة حين تلمسها الأنامل.

هل يا ترى من بعد شعرك سوف ترتفع السنابل؟[56]

لقد كانت بلقيس هي ملهمته قبل موتها وبعد موتها أيضًا، حيث أصبحت مأساه كبرى في حياة نزار يكتب عنها ويبكيها في أشعاره. إنها ملكته التي عشقها وفضلها على كل نساء العالم فهو القائل أن من يعبدإلها واحدا عليه أن يحب امرأة واحدة، فهو يقدس الحب ويخلص فيه أيما إخلاص. ولذا كان موت بلقيس من أهم أسباب نزعة الحزن في شعر نزار.

ونلمح مدى توجع نزار على حبيبته وأمه الثانية فهو يضع نفسه فى منزلة أولاده يقول:

بلقيس لا تتغيبي عني فإن الشمس بعدك لا تضيئ على السواحل ...

بلقيس ... مشتاقون مشتاقون مشتاقون ... والبيت الصغير يسأل عن أميرته المعطرة الذيول نصغي إلى الأخبار والأخبار غامضة ولا تروي فضول ...

بلقيس

مذبوحون حتى العظم

والأولاد لا يدرون ما يجري

[55] نزار قباني– الأعمال الكاملة– قصيدة (بلقيس) إعداد محمد صلاح السيد– دار الخلود للتراث– الدار العربية للنشر والتوزيع – ط2009– جـ1–صـ 369

[56] نزار قباني– الأعمال الكاملة– قصيدة (بلقيس) إعداد محمد صلاح السيد– دار الخلود للتراث– الدار العربية للنشر والتوزيع – ط2009– جـ1–صـ 369

ولا أدري أنا ماذاأقول ؟
هل تقرعين الباب بعد دقائق ؟
هل تخلعين المعطف الشتوي ؟
هل تأتين باسمة
وناضرة
ومشرقة كأزهار الحقول ؟
بلقيس
كيف تركتنا في الريح
نرجف مثل أوراق الشجر ؟
وتركتنا – نحن الثلاثة– ضائعين
كريشة تحت المطر
أتراك ما فكرت بي ؟
وأنا الذي يحتاج حبك مثل (زينب)أو (عمر).[57]

إن نزارا هنا يتساءل باستنكار كيف تتركه بلقيس في العالم وحيدا، كيف تترك كل شيء ينتمي إليها ويتمنى لو أنها تعود، و أنها تقرع باب البيت ثانية لو أنها ترجع لتنقذهم من ريح الحياة العاصفة ، ويصور أسرته الصغيرة بدون بلقيس وكأنهم ريش ضعيف مبعثر في الطرقات تحت المطر، وهو كأولاده تماما يحتاج إليها.

لقد كانت بلقيس هي ملهمته قبل موتها وبعد موتها أيضًا، حيث أصبحت مأساه كبرى في حياة ، نزار يكتب عنها ويبكيها في أشعاره. إنها ملكته التي عشقها وفضلها على كل نساء العالم فهو القائل أن من يعبد إلها واحدا عليه أن يحب امرأة واحدة، فهو يقدس الحب ويخلص فيه أيما إخلاص. ولذا كان موت بلقيس من أهم أسباب نزعة الحزن في شعر نزار.

[57] نزار قباني– الأعمال الكاملة– قصيدة (بلقيس) إعداد محمد صلاح السيد– دار الخلود للتراث– الدار العربية للنشر والتوزيع – ط2009– ج1–صـ 369

ثم يتساءل نزار قباني أهكذا الشعراء جاءوا من رحم الشقاء أم أنه الشقى الوحيد ، فهو برغم محاولاته لإسعاد الجميع لايعرف السبيل لإسعاد نفسه وكأن الشقاء قدره يقول نزار :

يا بلقيس يا أحلى وطن لا يعرف الإنسان كيف يعيش في هذا الوطن لا يعرف الإنسان كيف يموت في هذا الوطن مازلت أدفع من دمي

أعلى جزاء كي أسعد الدنيا ولكن السماء

شاء تبأن أبقى وحيداً مثل أوراق الشتاء ... هل يولد الشعراء من رحم الشقاء؟

هل القصيدة طعنة

في القلب ليس لها شفاء ؟ أم أنني وحدي الذي عيناه تختصران تاريخ البكاء؟[58]

إن نزار يلح في التساؤل عما كان هو الشقي الوحيد من بين الشعراء والحق أن "حياة الفنانين بصفة عامة غير مرضية إلى حد بعيد. إن لم نقل أنها مؤسفة."[59] فهم يختلفون عن بقية البشر فسعادتهم تكون بالغة وحزنهم يصبح شديدا.

6- الهزائم العاطفية :

ويبدو أن نزار قد مر بتجارب عاطفية كثيرة ، ومن الأكيد أن لهذه التجارب وتقلبها تأثير كبيرعلى نفس الشاعر الذى يُحب بكل ما امتلك من قوة وجنون مثل نزار قباني ، وعندما يكون الشاعر" دنجوانًا " كنزار فإن التناسى لنزار منهن قد يؤثر فيه عنيفًا فيصبح وكأن أبا تمام يقصده حين يقول:

راحت غوانى الحى عنك غوانيا يلبسن نأيًا تارةً وصدودا[60]

لذلك نرى نزار قباني يعترف فيقول:

أكلَ الحبُّ من حشاشةِ قلبي والبقايا تقاسمتهاالنساءُ كلٌّ أحبابي القدامى نسَوني لا نُوارَ تجيبُ أوعفراءُ فالشفاهُ المطيّباتُ رمادٌ وخيامُ الهوى رماهاالهواءُ سكنَ الحزنُ كالعصافيرِ قلبي فالأسى خمرةٌ وقلبي الإناءُ إنَّ في داخلي عصوراً من الحزنِ

---

[58] نزار قباني- الأعمال الكاملة- قصيدة (بلقيس) إعداد محمد صلاح السيد- دار الخلود للتراث- الدار العربية للنشر والتوزيع – ط2009- جـ1-صـ 369

[5959] د.عز الدين اسماعيل- التفسير النفسي للأدب- دار المعارف- القاهرة- ط1963-صـ46

[60] أبو تمام- الديوان-دار المعارف- صـ228

فهل لي إلى العراقِ التجاءُ؟
وأنا العاشقُ الكبيرُ.. ولكن
ليس تكفي دفاتري الزرقاءُ[61]

إن التناسي والسلوان فيه نصف ألام العشق، أن ينساك من تفتأ تذكره هذا هو الخسران المبين في الحب، كيف للعاشق أن يحتمل قسوة المعشوق و تناسيه للأيام الخوالي في العشق. وينكر يوما في الهوى كانا ينهلان من كأس الحب شهدٌ جبليٌ معتق.

ويقول: لا تشعري بالذنب يا صغيرتى
لا تشـــــــعري بالـــــــذنب فـــــــإن كـــــــل امـــــــرأةٍ أحببْتهـــــــا
قد أورثتني ذبحةً في القلب[62]

ونشعر بقدر الحزن فى شعر نزار فى قصيدته "طوق الياسمين"

عندما يقول: وجلست في ركن ركين تتمشطين
وتنقطين العطر من قارورة وتدندنين
لحناً فرنسيالرنين
لحناً كأيامي حزين
قدماك في الخف المخصب جدولا منالحنين
وقصدت دولاب الملابس تقلعين وترتدين
وطلبت مني أن أختار ماذا تلبسين
أفلي إذن ؟ أفلي تتجملين!!
ووقفت في دوامة الألوان ملتهب الجبين
الأسود المكشوف من كتفيه هل ترتدين[63]

[61] نزار قباني– الأعمال الكاملة– قصيدة (إفادة في محكمة الشعر) إعداد محمد صلاح السيد– دار الخلود للتراث– الدار العربية للنشر والتوزيع – ط2009.

[62] نزار قباني – الأعمال الكاملة– قصيدة (يوميات مريض ممنوع من الكتابة) – إعداد محمد صلاح السيد– دار الخلود للتراث– الدار العربية للنشر والتوزيع – ط2009– ج2– صـ884

[63] نزار قباني– الأعمال الكاملة– قصيدة (طوق الياسمين) إعداد محمد صلاح السيد– دار الخلود للتراث– الدار العربية للنشر والتوزيع – ط2009.

ثم يستطرد فى نبرة نزارية رائعة وكأنه يحدث نفسه:

لكنه لون حزين لون كأيامي حزين[64]

ومن هما يطلق نزار ندائه: أريدُ الذهابَ ..

إلى زَمَنٍ سابقٍ لمجيء النساءْ ..

إلى زمنٍ سابقٍ لقُدُوم البكاءْ[65]

إن كل طريق للحب يفضي بنزار للحزن.. كل ذكرى حلوة في أيام العشق تعود بنزار لذكرى مؤلمة. إن "شعر نزار قباني شعر الإيجاب، شعر الإصرار، شعر تمجيد كلما هو حر، فيه فاكهة بكر تجنى كل يوم من شجرة كأنها بكر كل يوم. والمعجزة في كل ذلك هي أن يلتصق الشاعر بعصره ومكانه، فيتجاوزهما، ويبقى صوت اليوم هو صوت الغد وبعد الغد، ويكون الشعر والعشق صنوين في اتحاد الشعر بالكون، وتغدو زمانية التجربة خارجة على الزمان نفسه.[66]

وما يميز شعر نزار قباني عن غيره انه " يعتمد البساطة في اختيار الكلمة وتركيب العبارة وهذه البساطة هي التي خلقت له ذلك الرصيد من الشعبية الذي يكاد لا يدانيه فيه شاعر عربي معاصر."[67]

ويجدر بنا أن نقول أن هذه الأسباب هى التى استطعنا استنتاجها من شعره وليس أبدًا فى وسعنا أن نعرف ما هى الأسباب الخفية لحزن نزا ر قبانى ربما تكون نتيجة تراكم المصائب جميعها.فقد "وجدناه يرثي زوجته بلقيس التي ماتت في انفجار السفارة العراقية في بيروت ومرثيته هذه اعتبرت مرثاة للعروبة كلها، كذلك مرثياته في الزعيم جمال عبد الناصر ثم عميد الأدب العربي الدكتور طه

[64] نزار قباني– الأعمال الكاملة– قصيدة (طوق الياسمين) إعداد محمد صلاح السيد– دار الخلود للتراث– الدار العربية للنشر والتوزيع – ط2009

[65] نزار قباني– الأعمال الكاملة– قصيدة (أنا والنساء) إعداد محمد صلاح السيد– دار الخلود للتراث– الدار العربية للنشر والتوزيع – ط2009– جـ3– صـ1326

[66] جبرا ابراهيم جبرا– النار والجوهر – المؤسسة العربية للدراسات والنشر–بيروت– ط3 1982– صـ179

[67] سهيل ادريس– مواقف وقضايا أدبية– مقال (ملاحظات على قصيدتين– دار الآداب– ط1977 – صـ40

حسين تحت عنوان (حوار ثوري مه طه حسين) وأخيرا نزيفه الصارخ في ابنه توفيق تحت عنوان إلى الأمير الدمشقي توفيق قباني (1949–1973).[68] ورثاءه أيضا لوالدته أم المعتز، وربما تكون أسباب غير معهودة لنا على أى حالٍ فنحن نجد شعر نزار أمامنا وقد امتلئ بشارات سوداء يقول:

مُبلّلٌ.. مُبلّلٌ ،،، قلبي ، كمنديل سَفَر
كطائرٍ .. ظلّ قروناً ضائعاً تحت المطرْ
زجاجةٌ .. تدفعها الأمواجُ في بحر القَدَرْ
سفينةٌ مثقوبةٌ ... تبحثُ عن خلاصِها،
تبحثُ عن شواطئٍ لا تُنْتَظرْ .. قلبيَ يا صديقتي ! مدينةٌ مغلقةٌ ..
يخافُ أن يزورها ضوءُ القمَرْ ... يضجرُ من ثيابه فيها الضجَرْ
أعمدةٌ مكسورةٌ
أرصفةٌ مهجورةٌ
يغمرها الثلجُ وأوراقُ الشجَرْ[69]

تلك اللوحة الوسداء التي يرسمها نزار عن قلبه. يصور فيها حال قلبه ومشاعره في صورة مأساوية ؛ فقلبه مبلل بدموع الفراق كمنديل السفر، وصفه بأنه كطائر ضاع تحت المطر، المطر الذي طالما ربط نزار في قصائده الأخرى بينه وبين الكآبة الحزن، ويعود فيشبه قلبه بزجاجة مدفوعة في مياه البحر لا تعرف مرسى ولا تقصد طريق، قلب نزار مدينة مغلقة خربة مظلمة لا يزورها ضوء القمر أعمدتها مكسورة أرصفتها مهجورة يغطيها الثلج وأوراق الشجر المتساقطة. إن نزار يرى قلبه في خريف أيامه لا يتخلله ربيع. وهذا منتهى الحزن. وفقدان الأمل في الحياة والحب.

[68] محمد عبد الرحمن مصطفى عبد الرحمن– البناء الفني للشعر الغزلي عند نزار قباني– رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي– 1426هـ:2005م.

[69] نزار قباني– الأعمال الكاملة– قصيدة (الدخول إلى هيوشيما) إعداد محمد صلاح السيد– دار الخلود للتراث– الدار العربية للنشر والتوزيع – ط2009–جـ1– 397

وهذه أيضا بعض المقاطع التي يظهر فيها الحزن صارخا في وجه الحب والأمل والحياة، أبياتها مكتظة بمفردات الحزن من تمزق وألم وحطام وفقد وضياع نسيان ونيران وأحزان وفجيعة وألم،وليل ومطر وغيرها، وكلها مفردات تنم عن حزن دفين وألم عميق في نفس نزار.

هكذا كانت قصائد نزار تتبع بملامح الحزن حتى في أكثر لحظات العشق والأمل يتحول الأمل إلى يأس و قلة حيلة وقلب مكسور ضعيف أصابه الوهن من تناوب المصائب عليه. وهذه الأحزان لم تكن من فراغ؛ وإنما جائت نتيجة لأحداث متوالية على قلب نزار فآلمته و انعكست في أشعاره وكتاباته فاختلط الحب بالألم والفرح بالحزن وتكونت صورة تجمع الأمل والألم في صفحة شعرية واحدة منمقة الأسلوب والكلمات و الموسيقى الهادئة الكئيبة.

خاتمة:

نظر كثير من النقاد والباحثين للشاعر نزار قباني علي أنه شاعر الغزل، الذي يتغزل في المرأة وتكاد تخلو قصائده إلا من كلمات الحب والعشق والغزل سواء العفيف أو الصريح، وكأن نزار قد خلت حياته إلا من موضوعات المرأة وعشق المرأة، وربما لم ينظر الغالبية للمحات أخرى في شعر نزار، ولم يتطرقوا إلا إلى هذا الجانب من شعره. رغم أن شعر نزار قد امتلأ بجوانب أخرى اجتماعية وسياسية، وربما رمزت المرأة كثيرا في شعره إلى الوطن، وربما لم تكن المرأة لم تكن همه الأول كما يظن البعض، ولكنها حاجة في نفس نزار قضاها.

والمتأمل في شعر نزار يجد أن لمحة حزن قد غطت الكثير من أشعاره، ولم تكن لمحة الحزن هذه آتية من فراغ، إن حياة نزار قباني مكتظة بالأزمات والحوادث المأساوية، والتي اثرت بدورها في نسج خياله الشعري، وأضفت طابعها الحزين على شعره.

لقد كان نزار قباني شاعرًا وكونه شاعر فهذه ربما مأساة في حد ذاتها، فالفنانون عموما حياتهم ليست مرضية على الإطلاق، وخاصة الشعراء، فالشاعر

لديه من الحس ما يفوق غيره وقوة الإحساس هذه تجعله ينظر للأمور بنظرة أكثر رومانسية.

ولما كان الشعر يحكي تاريخ العرب، انتصاراتهم وهزائمهم، فقد كُتب على الشاعر ان يكون سجلاً يكتب كل حدث تاريخي بصدق ودقة، فأصبح اهتمام الشعراء بالحياة السياسية في الوطن العربي، خاصة في فترة ما بعد النكسة، طامة كبرى حلت برؤوسهم إنهم يرون الوطن من حيث لا نراه يعشقونه بعنف، يقدسون ذرات ترابه، و يمجدونه؛ فكان بديهي أن يتأثر نزار بتلك الأحداث السياسية عقب النكسة وتلاها وفاة عبد الناصر بالإضافة لقضية فلسطين والقدس المغتصب أرضها منذ سنين.

ونزار كأي إنسان يواجه صدمات القدر، ففقد نزار لولده توفيق وزوجته بلقيس ووالدته أيضا قد كان سببا أساسيا في ظهور طابع الحزن في أشعاره فكلها تراكمات نفسية أدت به إلى اليأس والاكتئاب. بالإضافة إلى هزائمه العاطفية والتي قد آلمته كثيرا في رحلته الحياتية، فشاعر في مثل موهبته الرومانسية الفياضة الحالمة تؤثر بنفسه الأزمات العاطفية أيما تأثير. ففضات نغمة الحزن في أغلب أبياته وقصائده.

قائمة المصادر والمراجع

1) أبو تمام– الديوان–دار المعارف.

2) أحمد زكي أبو شادي:شعراء العرب المعاصرين، ط1، المطبوعات الحديثة،1958م

3) جبرا ابراهيم جبرا– النار والجوهر – المؤسسة العربية للدراسات والنشر–بيروت– ط3 1982

4) جيهان السادات: أثر النقد الإنجليزي في النقاد الرومانسيين في مصر بين الحربين(في الشعر)– دار المعارف– ط1992

5) حبيبة محمدي– القصيدة السياسية في شعر نزار قباني– موفم للنشر والتوزيع– الجزائر– ط 2001

6) حسين العوري– الرفض في شعر نزار قباني – يونيو 1967/أكتوبر 1973– الدار العربية للكتاب– تونس– د.ط، 1999م

7) حنا عبود– النظرية الأدبية الحديثة والنقد الأسطوري– منشورات اتحاد الكتاب العرب– ط– 1999م

8) خالد طحطح – عودة الحدث التاريخي – دار توبقال للنشر – ط1 –ط 2014م

9) خريستو نجم– النرجسية في أدب نزار قباني – الرائد العربي– بيروت– لبنان– ط1– 1983م

10) ربيع علاء الدين– الرومانتيكية والقصة – مجلة الآداب الأجنبية– سنة 9– مجلد 14 – عدد 29 – دمشق – 1982 م.

11) ريموند ويليامز : الفنان الرومانتيكي – ترجمة: محمد عدنان حسين، مجلة الآداب الأجنبية– السنة الخامسة– مجلد9– عدد2– اتحاد الكتاب العرب– دمشق

12) د.زكريا ابراهيم– مشكلة الفن– مكتبة مصر.

13) زكي نجيب محمود– قشور ولباب – دار الشروق– ط1401:1هـ،1981م– ط2: 1408هـ، 1988م

14) سهيل ادريس– مواقف وقضايا أدبية– مقال (ملاحظات على قصيدتين– دار الآداب– ط1977

15) د. سهيل محمد خصاونة– نزار قباني والنثر – رثاء ولده توفيق نموذجا –مجلة مجمع اللغة العربية دمشق– 2005

16) شريف يونس– الزحف المقدّس– مظاهرات التنحّي وتشكُّل عبادة عبد الناصر– دار ميريت – 2005م – أحداث 9،10 يونيو 1967م–
17) شوقي ضيف – دراسات في الشعر العربي المعاصر– دار المعارف– ط1– 1953–
18) طارق الهاشمي – الفكر القومي العربي لجمال عبد الناصر– ضمن مجموعة بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية– مركز دراسات الوحدة العربية – ط1– بيروت – 1986م
19) عبد العزيز المقالح– الشعر بين الرؤيا والتشكيل– دار العودة– بيروت– ط1– 1981م
20) د.عز الدين اسماعيل– التفسير النفسي للأدب– دار المعارف– القاهرة– ط1963
21) عز الدين اسماعيل– الشعر العربي المعاصر، قضاياه وظواهره الفنية– ط1– 1966م
22) علي حداد– أثر التراث في الشعر العراقي الحديث– بغداد– دار الشؤون الثقافية العامة – آفاق عربية– ط1– 1986 م
23) عيسى بلاطة : الرومنطيقية ومعالمها في الشعر العربي الحديث– المؤسسة العربية للدراسات والنشر– ط2014
24) د.فاروق وهبه– ظاهرة الاغتراب في فن التصوير المعاصر– الهيئة المصرية العامة للكتاب– مكتبة الأسرة– ط2001
25) محمد عبد الرحمن مصطفى عبد الرحمن– البناء الفني للشعر الغزلي عند نزار قباني– رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي– 1426هـ:2005م
26) محمد غلاب – أدباء الرومانتيكية الفرنسية – مكتبة نهضة مصر– القاهرة– ط1958
27) محمد غنيمى هلال– الرومانتيكية– نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع–
28) محمد غنيمي هلال– النقد الأدبي الحديث– نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع– ط6– 2005
29) مروان العطية– معجم المعاني الجامع.
30) نزار قباني– الأعمال السياسية الكاملة، قصيدة جمال عبد الناصر– جـ3– ط6– منشورات نزار– بيروت– 2000م.
31) نزار قباني – الأعمال الكاملة– إعداد محمد صلاح السيد– دار الخلود للتراث– الدار العربية للنشر والتوزيع – ط2009– جـ1، جـ2، جـ3.
32) نزار قباني– الكتابة عمل انقلابي– دار منشورات نزار قباني– بيروت– لبنان– ط4– 1984–
33) نزار قباني– لعبت بإتقان وها هي مفاتيحي– دار منشورات نزار قباني– بيروت– لبنان

34) نزار قباني– ماهو الشعر– دار منشورات نزار قباني– بيروت– لبنان
35) نسيب نشاوي– مدخل إلى دراسة المدارس الأدبية في الشعر العربي المعاصر– ديوان المطبوعات الجامعية– الجزائر– ط1984
36) هربرت ريد – السريالية والمذهب الرومانتيكي – ضمن كتاب– أسس النقد الأدبي الحديث، ترجمة: هيفاء هاشم– مراجعة: نجاح العطار– مطابع وزارة الثقافة– دمشق –ط 1966م
37) هربرت ريد– معنى الفن– ترجمة سامي خشبة– دار الكتاب العربي– القاهرة.